

## "حيث اختفى الطائر" .. ميثولوجيا اللاجئ وطواطمه

أشرف الزغل

لك أن تقرأ "حيث اختفى الطائر" كرواية، لكنك لن تعطي النص ما يستحقه إن فعلت ذلك. "حيث اختفى الطائر"، الذي هو آخر أعمال غسان زقطان الأدبية (حتى كتابة هذه السطور) له معمار خاص، يعتمد على غنائية عميقة فيها فعل درامي استبطاني مستمر. بإمكانك أن تسميه "الشعر في قنوات السرد" كما وصف الناقد المصري صلاح فضل نصوصا سردية عربية فيها نفس غنائي قوي، وبإمكانك أن لا تسميه أبدا؛ متبعا نصيحة الكاتبة الأميركية المرموقة فرجينيا وولف: "من الممكن ان نلاحظ بزوغ شكل روائي لم نقدمه باسم خاص حتى الآن. وسيكتب نثرا لكنه يتضمن قدرا كبيرا من خصائص الشعر ... أما ماذا سنطلق عليه فليس لذلك أهمية كبيرة".

نحن أمام نص سردي شعري حدائي، تكمن فعاليته الرمزية والجمالية في "تفكيك حكمة" المكان، تماما كما يفعل أحدنا عندما يقرأ قصيدة ما (وفقا لجاك لاكان). الحكمة ذاتها التي عاجها المؤلف في نصه اللافت "وصف الماضي"، غير أن المشهد هنا واسع وفسيح، فمن غرفة البنت والباب الموارب والكراسي المفككة في "وصف الماضي"، إلى الخرابات والأديرة والطيور المحلقة في دهاليز السرد في النص الذي أمامنا. السرد الذي يتسع للوطن ومعماره الجغرافي والميثولوجي.

في مساحة دافئة مطمئنة بين المتخيل والرمزي والواقعي يقع نص زقطان الجديد، الذي لا يقدم نفسه كرواية وطنية فيها طرافة سياسية شعبية بل كتجربة سردية حدائية جديرة بالقراءة والإهتمام. هي تجربة، على طمأنينتها، شجاعة في التوغل في سؤال الوطن كمعلم وجودي إنساني وفي الآخر ليس كصانع مشهد فقط بل كمشاهد، فيه من الإرتباك والغربة ما فيه.

## جغرافيا العاشق

في الفصول الأولى من "حيث اختفى الطائر" يتشكل مشهد فيه جغرافيا غامضة، تتعلق بفلسطين لكن لها مراتب أخرى يتم تثبيت الزمان فيها أو تمكينه ليصبح جغرافيا موازية لفلسطين. معالم المشهد تتكون من مزيج من الغيبي والحقيقي، فهو مشهد فيه الماضي يسرق الخطوات باتجاهه، فكأنه الرغبة ذاتها؛ الماضي يتقمص الرغبة ويجمع بشخوص الرواية الذين يتحركون كعائلة ضائعة على جزيرة نائية؛ عائلة من الأنبياء أو من أشخاص قادرين على التحدث مع الأرض بلغة خاصة. يحيى الذي يسير ويصير في الميثولوجيا يحاور زكريا ويونس يحاور ياسين . الجدل يدور على حكايات فيها الأرض سر هائل. نداءات خفية تنبع من "جسد شجرة البلوط في مدخل القرية" وغياب أجساد في محصلة الحدث الذي يحمل إحدائياته خارج المكان ودخله في آن واحد.

في السياق السردي الفلسطيني، هناك تقاطعات لهذا النص مع نصوص سردية سابقة مثل "سرايا بنت الغول" لأميل حبيبي. ثمة تقاطعات مع "وصف الماضي" لغسان زقطان أيضا. ما ينبغي الإشارة إليه بخصوص "حيث اختفى الطائر" أن السرد هنا أقرب إلى الشعر بمقدار أكبر من الذي في "وصف الماضي"، أما بالنسبة لـ "سرايا بنت الغول"، فسردية زقطان أكثر كثافة وأقل تشتتا من الناحية النثرية، بحيث لا نرى أثرا في نص زقطان للخطابية والنثرية المتذكية الجافة والممتدة أفقيا لا عموديا.

تأخذ الحكاية الفلسطينية في "حيث اختفى الطائر" مذهب "الباب الموارب"، حيث السرد ينحت في أنطولوجيا الخرافة ودلالاتها، حيث الغناء صنو الصلاة وحيث هوامش الجغرافيا هي ذاتها البئر حيث جسد يحيى يحك جسد سارة في الواقع والمجاز. يحيى الذي كان يسرح قبل قليل في خرائب البلد قتل مع الفجر. سارة التي التصق بها يوما في ممر ضيق لا تعرف. يدفنه زكريا في حفرة تحت "شجرة يوسف"، ويقول "للشبح الصامت تحت شجرة يوسف" وبذات اللغة الخاصة التي تربطه بالسحر الذي هناك في عمق الأرض: "إسمه يحيى". ينتهي فصل دفن يحيى بشكل غنائي حاد، فرأس يحيى لا يزال بيدي زكريا ورائحة سارة لا تزال على جسده.

## ميثولوجيا اللاجئ وطواطمه

من البداية إلى النهاية تسعى سردية غسان زقطان في أمر الإسقاط الميثولوجي لسيرة اللاجئ الفلسطيني، إسقاط بالمعنى الرياضي الديكارتي المعقول من جهة وبالمعنى السينمائي الغرائبي من جهة أخرى. ففي فصل دير مار سابا، نلحظ التناسق الذكي بين نص معماري تجريدي هو دير مار

سابا بخطوطه النابذة في الجبل كشاهد على حقيقة ما وبين روح ذلك النص في الحكاية؛ حكاية الهوية الهاربة من التحقق والمتحققة في الهروب في آن واحد. هوية الراهب/اللاجيء يحمل في رأسه خطوط تشكله وإشكاليات تلك الخطوط في آن واحد. هل هي تراجيديا الثنائيات؟ الواقع والحلم، البئر والأفق، الدير كبيت الله الخائف والكنيسة كبيته الآمن في روما أو في فلسطين ما بعد الميثولوجيا.

فيما يلي، نرى وصف دير مار سابا الجميل والذكي، حيث "الشعر في قنوات السرد" والسحر في أوردة الحجر:

"في الداخل حيث الضوء أكثر شحوبا ومع غياب الشمس كان الدير يمتلئ بخمسة آلاف راهب من البنائين الذين بنوه حجرا حجرا وحفروه داخل الجبل رفقة الراهب "سابا" قبل أكثر من ١٥٠٠ عام، ويصعد قاسيون ورجال وصلوا تخوم القداسة من توابعيتهم، حيث يلتقي الأحياء والموتى في ردهات الدير وممراته لتلاوة صلواتهم، كأنهم يقسمون الخبز فيما بينهم من الليل حتى الضحى. كان يسمع أحاديثهم وخطاهم ويميز خطى الموتى الخفيفة وتمتماتهم الخالية من اللغة، ويحبس حركة جسده تاركا لهم الهواء كاملا"

ميثولوجيا اللاجئ في حكاية زقطان فيها عناصر الغناء من دوران وتكرار وفيها عناصر التوتر الدرامي الرمزي، بحيث تتحرك اللغة والصورة داخل الحكاية وخارجها. لذلك فإنها - على الرغم من صغرها وعدم اعتمادها على تطور الشخصيات والبؤرة الدرامية التقليدية - تنحت ما يمكن تسميته معالم أو طوابع سردية تمشي إلى جانب الشخصيات، أو تخرج من حواف ظلالهم. في ذلك إرباك ما، لكنه إرباك مدهش يبعث على الإيغال في قراءة الحكاية وروايتها أيضا بحيث يقع القارئ في مستوى المؤلف؛ يبحثان سويا عن الطائر الذي حلق في الجوار أو بقي عالقا في مكان مريب.

## الآخر - أكثر من حكاية

في "حيث اختفى الطائر"، الآخر عنصر وجودي من عناصر المشهد؛ عنصر مزدوج فهو الصياد الكولونيالي الأبيض في الكمان على مداخل القرى في فلسطين وهو أيضا الفريسة التي جاءت من بلاد تتكلم العربية و"علقت" في تراجيديا لم تكن في مخيلتها. اليهودي الأبيض الكولونيالي أتى عبر البحر كي يكمل رحلة حج لها ارشيفها العنصري، حيث أرض الأغيار أرض بلا شعب، وهناك اليهودي العربي، ذلك المرتبك الذي "قدم من المغرب، وعلق هنا". لا نرى كثيرا من اليهودي الأبيض، فقسته تشبهه، هي خائفة ومتهمة، تفرص خلف الكمان بانتظار ضحية ما تعطئها تعريفا تقليديا تفضله.

أما اليهودي العربي فروايته تبدو عاقلة في مشهد عبثي. يقدم زقطان في وصف ذلك مقطعاً اعتبره من أجمل مقاطع الحكاية :

"فكر "زكريا" وهو ينصت للعجوز الثمانيني من "الدار البيضاء" أن الرجل كان مستنفذاً تماماً، وأنه ليس غاضباً، كما أعتقد للوهلة الأولى عندما سأله عن قبر "يحيى".

كان يقف بعد الغضب، وبعد الرضا، بعد الفضول وبعد الخوف، بعد الندم، كان قد وصل إلى تلك المنطقة التي لا تحدث فيها الأشياء

الفضاء الذي تصله الأشياء بعد أن تحدث، هناك بالضبط جلس وحيداً ومتعثراً في استسلامه الخاص تحت مظلته

من مكان ما لا يتبينه أتي توقع المطر، من التكرار والضجر والانتظار، ليس من أي نبوءة.

كان جسده قد تولى أمره منذ زمن ولم يعد يتذكره"

## الطائر المريب

للطائر في نصوص غسان زقطان الشعرية والسردية دلالة لاشعورية حاسمة، فهو ذلك الشيء الذي يعلق أو يطير في مكان ما بين اللغة والذاكرة، هو صوت مرة وصورة مرة أخرى، هو جرس كالذي في مجموعته الشعرية " كطير من القش يتبعني ". زقطان، برومانتيكيته الناعمة يركز خلف الطير أو أمامه " جرس واحد كان يندهها بإسمها وهو يصعد/ ربما كي يرى الهاء معقودة" فوق حرش الصنوبر".

في "حيث اختفى الطائر"، وعلى النقيض من دلالات الطير الأليفة في نصوصه السابقة، ثمة ريبة وخوف. الطائر هنا، على نقيض الطير غامض كأحجية أو كحقيقة منقرضة. في وسع القارئ أن يتخيل غراباً أو تيناً لا عندليباً أو شحروراً. رومانتيكية ملحمية سوداء ترشح من ذيل الطائر.

## المتخيل - الرمزي - الواقعي

تُدَّكر سردية زقطان نوعاً ما مَلحمة جَلجامش وسعي جَلجامش الحثيث إلى الخلود، برفيق جَلجامش أنكيدو. هل يحيى وزكريا هما جَلجامش وأنكيدو، وهل الطائر إله هائل المكر يتجسس عليهما ويضمّر لهما المرض والفناء. أم أنهما الأب والابن في الأثر الديني الإسلامي ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا

نُبَشِّرُكَ بِغَلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا. وهل هناك طرافة سياسية ما في الموت الذي اقتلع رأس يحيى وهو في إثر زكريا. الموت الذي يكمن خلف الكمان حيث بني إسرائيل الجدد. في الأثر، ذكر الطبري أن فساد بني إسرائيل الأول كان بقتل زكريا، وأن فسادهم الثاني كان بقتل يحيى. هل هو فساد بني إسرائيل الثالث، حيث يطاردون أبناء زكريا؟ . يبدو أن زكريا-القرية وريثة الميثولوجيا بخراباتها العميقة، حيث الطائر يحلق منها وإليها هي الوحيدة التي تعرف سر الدلالة. ثمّة حكاية لليهودي ضائع هنا، يعرف زكريا من خلالها "أن ثمّة أحداثا لا تمتلك القوة للحصول على نهاية، وإن حياة هذا العجوز من هذه الأحداث ....

يعرف الآن على نحو جلي أن ثمّة أشياء لا تمتلك القوة للحصول على نهاية.

لا تمتلك الحق أيضا.

لم يعد ممكنا الحصول على نهاية".

## خاتمة

لا شك أن هناك نفس تراجيدي ملحمي في سردية غسان زقطان الجميلة، لكنه نفس غير متصاعد بل متعدد المراكز بحيث يملك كل مركز روحا خاصة في مثلث: المتخيل - الرمزي - الواقعي. نحن أمام نص سردي شعري مهم يتشكل على تطويع الرمز الميثولوجي في لعبة درامية داخلية، مبنية على تعدد الأصوات الحية والتي تحت التراب في ذات اللاجئ الفلسطيني، حيث تختفي كراسي الملاذ القديم وتتفكك، وحيث المتكلم والمخاطب والغائب يشكلون جسد السرد بوحدانيته، كما في "وصف الماضي" سردية غسان زقطان الأخرى، والتي لا بد من قراءتها أيضا لسبر سياق روائي فلسطيني فريد وخاص.